أرق الحسن ( يبكي ويضحك ) للأخطل الصغير بشارة الخوري شاعر الهوى والشباب

الأستاذ غسان يوسف

الشاعر بشارة الخوري (الأخطل الصغير) ، شاعر حلّق في دنيا الشعر، ومثّل بين شعراء عصره الطليعة الوجدانية والاجتماعية. واعتبره البعض شاعراً في طليعة شعراء عصر النهضة الأدبية الحديثة وأبرز روّداها ورجالاتها الذين وضعوا أسسها، وأرسوا بنيانها، ورفعوا مداميكها. والأخطل الصغير “هو واحد من أقدر الكتّاب الذين أعادوا للكلمة العربية نقاءها وصفاءها، وردّوا إليها منزلتها ومكانتها، بعدما مرّت عليها عهود طويلة مظلمة من ليالي الانتداب والاستعمار الشديدة السواد”.

انتشرت قصائده المغناة في العالم العربي ، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر : فيروز التي غنت قصائد مثل – “قد أتاك يعتذر” و “يا عاقد الحاجبين” و”أمس انتهينا” وقصيدتنا هذه” يبكي ويضحك”( أرق الحسن.) كما لحن الموسيقار محمد عبد الوهاب وغنى قصائد مثل : “جفنه علم الغزل” و”الصبا والجمال” و”الهوى والشباب”و”يا ورد مين يشتريك”( التي جمع فيها بين اللغتين العامية والفصيحة). وغنى الموسيقار فريد الأطرش قصائد مثل :”عش أنت” و “أضنيتني بالهجر”.

وعودة إلى قصيدتنا : أرق الحسن

1- يبكي ويضحك لاحزناً ولا فرحا كعاشقٍ خطَّ سطراً في الهوى ومحا

2- من بسمة النجم همس في قصائده ومن مخالسة الظّبـي الذي سـنحا

3- قلبٌ تمرس باللذات وهو فتى كبرعم لـمـسته الريح فانفـتحا

4- ما للأقاحية السمراء قد صرفـت عـنّا هواها؟ أرق الـحسن ما سمحا

5- لو كنت تدرين ما ألقاه من شجن لكنت أرفق مـن آسى ومن صفحا

6- غداةَ لوَّحْتِ بالآمال باسمةً ان الذي ثار وانقاد الذي جمحا

7- ما همني ولسانُ الحب يهتف بي إذا تبسم وجه الدهر أو كلحا

8- فالروضُ مهما زهتْ قفرٌ اذا حرمت من جانحٍ رفَّ أو من صادحٍ صدحا

موضوع القصيدة : الغزل

نظم الشاعر تسعا وسبعين قصيدة غزلية ، تتسم كلها بعاطفة فياضة وخيال رقيق وإحساس مرهف. ويمكننا أن نقسم قصيدتنا هذه إلى أربعة أقسام:

القسم الأول : الأبيات 1-3 : وموضوعها وصف للحالة النفسية التي يعيشها العاشق. ففي البيت الأول يصور حالة من التناقض والتخبط التي يعيشها العاشق،حالة تترنح بين ثنائية السرور والحسرة. انظر إليه وهو يستخدم طباق الايجاب في قوله يبكي وعكسها يضحك / حزن وعكسها فرح / خطَّ وعكسها محا. فالعاشق يعيش حالة متقلبة هل يبكي لما يعانيه ويكابده من تباريح الهوى وحرقة الفراق والحنين أم يضحك لأنه يفضل أن يعيش هذه الحالة على أن يكون خليًّا لا يحبُّ ولا يُحَبُّ. إن عهد الهوى عهدٌ جميل رغم ما فيه من رقيب وعاذل وحاسد ،وهو عهد بكاء من عذابات الفرقة والحنين. إذن هو يبكي ويضحك وبكاؤه ليس مظهر حزن كما أن ضحكه ليس مظهر فرح … ومن الذي يعيش هذه الحالة ؟ عاشق “خط سطرًا في الهوى …ومحا”. بدأ يكتب قصة حب لكنها توقفت بعد السطر الأول … أي أن القصة لم تستمر ولم تطل … وهنا يكمن عذاب العاشق.

وهذا العاشق هو شاعر . ومن أين يستمدُّ الشاعر أخيلته ويضعها في قصائده ؟؟؟ “من بسمة النجم ” ما أجمل هذا الخيال وهذه العاطفة!! إن الشاعر قد شحن هذه العبارة بمعان كثيرة ، لماذا النجم؟ هل لأن العاشق لا ينام ،يرعى النجوم ويراقبها ؟ أم لأن لمعان النجم يذكره ببسمة الحبيب وبريق ثغره الذي ذكره شعراءُ كثيرون؟ أم لأن النجم هو رمز للمحبوبة المتألقة ؟ ومنها يستمد خياله الشعريًّ الرقيق؟ يعود الشاعر إلى أسلوب الترميز مرة ثانية فيقول :” ومن مخالسة الظبي الذي سنح” فالحبيب يشبه الظبي ، وهذا الظبي قد مرَّ فاختلس كلٌ من العاشق والمعشوق نظرة إلى الآخر؟؟ وهذه المعانيمستقاة من ثقافته العربية.

ثم يعود الشاعر العاشق إلى الحديث عن نفسه. لقد عرف الحبَّ وهو بعد فتى غضًّا ، وتجربته في الحب قد

(غسان يوسف)

جعلت قلبه متمرسًا فيه كالبرعم الذي تلمسه الريح فينفتح. يستخدم هنا التشبيه التمثيلي ، المشبه فيه هو حال قلب الشاعر وقد تمرَّس بلذات الحب أي اعتادها وتدرَّب عليها وهو بعدُ فتى ، والمشبه به هو حال البرعم وقد لمسته الريح فتفتحت وريقاته.

القسم الثاني : (الأبيات 4-6)وصف للمحبوبة ولحالته النفسية:

جاء في قاموس المعاني ما يلي:

أقْحُوانُ: ( اسم)الجمع :أقاحِيُّ،وأقاحٍ

نَبَاتٌ مِنَ الفَصِيلَةِالْمُرَكَّبَةِ،لَهُ زَهْرٌأبْيَضُ وَرَحيقٌ أصْفَرُ، ذُو رَائِحَةٍ عطِرَةٍ، تَحْمِلُ رُؤُوسُ أغْصَانِه زُهُورَهُ، يَنْبُتُ بَرِّيّاً وَيَكْثَرُ فِي الْمُرُوجِ، وَيُزْرَعُ لنَوْرِهِ،يُوجَدُ فِي أغْلَبِ البُلْدَانِ .

يتساءل الشاعر عن المحبوبة التي ” صرفت عنا هواها” أي صدته . ويرمز إليها بالأقاحية أي زهرة الأقحوان البيضاء . وقد اختارها لجمالها وعطرها . ولكنه يضع صفة مناقضة ” السمراء” فمحبوبته سمراء، فهي اذن سمراء وأسنانها بيضاء ذات بريق جميل ( تغنى شعراء العربية ببريق الأسنان ، فقال البحتري: ألمع برقٍ سرى أم ضوءُ مصباحِ أم ابتسامتُها في المنظر الضاحي” وقال البوصيري: ” من لم يذُقْ ظُلمَ الحبيبِ كظّلْمِهٍ حلوا فقد جهلَ المحبةَ وادَّعى – والظَّلْم بفتح الظاء هو بريق الثغر). وقد استخدم أسلوبا جميلا وهو أسلوب الأوكسيمورون = أي تعبير مؤلف من مركبين اثنين ، يناقض أحدهما الآخر.( بياض الأقحوان وسمرة الحبيب) وكأني بالشاعر يجمع بين ما يتضمنه المركب الأول وما يتضمنه المركب الثاني لإغناء المعنىبكلمات قليلة.يا لحسن الحبيب! ، ولكنَّ هذا الحسن تنقصهالسماحة أي العفو ليصبحالأرق . فإن كان صدُّ الحبيب هو نتيجة لخطأ قد ارتكبه العاشق ، فالسماحة( العفو) تجعل من هذا الحسن أرقه وأعذبه. وفي البيت الخامس يذكر ما يلقاه من شجن وتباريح وشقوة محب فيتوجه مباشرة إلى المحبوبة ليقول لها:” لو كنت تدرين ” عِظمَ ما ألقاه من شقاء وألم فراق يصل إلى درجة المرض ، لكنت أرفق من داوى وعالج مريض الحب هذا ولكنت تصفحين عن ذنبٍ كان سببا أدى إلى أن الأقاحية السمراء ” قد صرفت عنا هواها”. فالحبيب هنا لا يدري ما حالُ العاشق وما يعانيه.

البيت6 : قلنا إن الشاعر يعيش ، أسوة بكل المحبين ، حالة من التناقض والتخبط في مشاعره فنراه ينتقل من وصف أشجانه وحالة السقام التي يعيشها بسبب هجر الحبيب، إلى وصف حالة نفسية مناقضة حملتها ابتسامة الحبيب ، هذه الابتسامة قد أيقظت عنده الآمال بالوصل واللقاء. فأعادت إليه هدوء القلب ( الذي ثار = كناية عن ثورة المشاعر في قلبه) وانقياده بعد أن كان كالحصان الجامح تصعب السيطرة عليه والتحكم به.

القسم الثالث :وفيه تبرز قيمة الحب في مواجهة الحياة عند الشاعر (7) فإذا ناداه ( هتف به) لسان الحب تساوى عنده الدهر في حالَي التبسم والغضب. لا فرق عنده بين أن تبتسم الحياة له أو أن تعبس ، فبالحب يستطيع أن يجابه الدهر المتقلب ، لأن الحب هو ما يعطيه القوة والتفاؤل والعزيمة التي بها يواجه تقلبات الدهر. والإنسان عنده لا يعيش إلا لأجل سويعات صفاء يمسح فيها عن قلبه ما لاقاه من شقاء.

القسم الرابع :وينهي الشاعر بنظرة شمولية للحياة . فيقول إن الروض مهما نمت وأشرقت وحسنت وتزينت وتزخرفت فإنها تبدو كالقفر إذا خلت من طيرٍ يرفرف بجناحيه أو يصدح بصوته. فهذا الطائر الغريد هو الذي يبث الحياة في الروض. وهكذا حياة الانسان لا قيمة لها ، مهما اغتنى وكسب ، بدون جمال الحب والشعر .

مبنى القصيدة:

نظم شاعرنا القليل في وزن التفعيلة، بيد أنه التزم في أغلب قصائده بالشعر العمودي. القصيدة منظومة على البحر البسيط ( مستفعلن فعلن ) ونرى التصريع في البيت الأول أي اتفاق صدر البيت وعجزه في التقفية. ويعتبر التصريع عنصرا من العناصر الإيقاعية ولافتا للسمع. كما ونلاحظ استقلالية المعنى في البيت وخلو القصيدة من الجريان. فكل بيت مستقل بمعناه لا يتعداه إلى البيت الذي يليه.

القافية ثابتة تنتهي بمدٍّ يكسبُ التعبير سلاسةوعذوبةجرس وهذا ملائم لأنَّة التحسّر التي كانت حاضرة عند الشاعر حتى في مجالس أنسه وفرحه.

الرومانسية : يلجأ الشاعر إلى الطبيعة ملاذا لنفسه ووسيلة للتعبير عن مشاعره وأفكاره. ( النجم – الظبي – برعم لمسته الريح- الأقاحية – الروض – قفر – جانح رف – صادح صدح ).

كما نجد شيئا من الغموض – البيت الأول والبيت الأخير. ومن الروحانيات في البيتين الثاني والسابع.

والاهتمام بالفردية – فالشاعر هنا يضع نفسه في صلب المعاني ويستخدم ضمير المتكلم مثل : صرفت عنا هواها – ما ألقاه – ما همني –يهتف بي . فنراه ينطلق في الغنائية. والمقصود في الغنائية هنا هو التعبير عن مشاعره وأفكاره الذاتية.

وهو يعبر عن التمزُّق الذاتي في مشاعره بين الفرح والحزن والضحك والبكاء واللذة والشقاء ( الشجن) والصدود ( صرفت عنا هواها) والرفق والصفح. والروض والقفر الخ ويجنح إلى الخيال لا الواقعية.

شعر الأخطل انعكاس لطبيعة لبنان ويدور حول الجمال في كل شيء : الوجوه والموسيقا والنصوص.

التنويع في الضمائر : ففي الأبيات 1-3 يتحدث عن العاشق بضمير الغائب ، ثم ينتقل إلى ضمير المتكلمين ( صرفت عنَّا …) ثم بضمير المفرد المتكلم ( ألقاه – همني – يهتف بي) وهو في الحالات الثلاث يقصد نفسه. فضمير الغائب استخدم لعرض الصورة العامة للعاشق، واستخدم ضمير المتكلمين ( عنا ) لمعاني الكبرياء والرجولة وشهامة النفس ثم ضمير المتكلم( المفرد) لتصوير الذاتية في المعنى.

(غسان يوسف)

أما في معرض حديثة عن المحبوب فهو يستخدم ضمير الغائبة لتصوير حالة من الفراق والصدود والغياب ، وضمير المخاطبة عندما يستحضر المحبوبة بفكره ومشاعره ومخيلته فيخاطبها كما لو كانت قريبة منه.

أساليب بلاغية :

الطباق : في البيت الأول – يبكي ويضحك / حزن وفرح/ خطَّ ومحا. والغرض من استخدامه هو تصوير حالة الاضطراب والتناقض والتخبط التي يعيشها العاشق. وفي البيت السادس “لان وثار / انقاد وجمح ” للتعبير عن التغير الكبير في حال مشاعره القلبية عندما يبتسم له الحبيب .وفي البيت السابع ( تبسم وكلح) والغرض من استخدام الطباق هنا هو إظهار التساوي بين الحالة الايجابية للدهر = التبسم ، والحالة السلبية له ( كلح) اذا توفر الحب والوصل.

الجناس الحرفي: حرف (س) يتكرر 4 مرات في البيت الثاني. وثلاث مرات في البيت الرابع. ولهذا الحرف موسيقا ملائمة لزفرة اللم التي يعيشها الشاعر.

التشبيه : استخدم تشبيه التمثيل في البيتين الأول والثالث. ففي البيت الأول يشبه حال من يختلط عنده البكاء والضحك والحزن والفرح بحال العاشق الذي يبدأ قصة عشق ولكن قصته لا تدوم بل تنقطع وهي بعد في مستهلها. أما في البيت الثالث فالمشبه هو حال القلب الذي اعتاد الحب وتمرس فيه وهو بعد شاب صغير والمشبه به حال البرعم الذي تلمسه الريح فيتفتح رغم صغره.

الكناية : الذي ثار والذي جمح في البيت السادس – كناية عن القلب.

الاستعارة: قلب تمرس باللذات … الاستعارة في كلمة ” قلب” شبه القلب بإنسان متمرس .. ذكر المشبه ( القلب) وحذف المشبه به ( القلب) فالاستعارة مكنية.

لسان الحب يهتف بي: شبه الحب بإنسان له لسان ويهتف.ذكر المشبه وحذف المشبه به فالاستعارة مكنية.

تبسم وجه الدهر : شبه الدهر بإنسان له وجه الخ

لغة القصيدة : كلمات القصيدة بسيطة وواضحة المعاني. اللغة سلسة التعابير عذبة الجرس وخصبة الخيال.

الأستاذ غسان يوسف